الهجرة في الشعر العربي

بقلم عبد اللطيف اليونس

قبل ان نتحدث عن الشعراء المهجريين والتجارة، وعن وطنيتهم ، وحنينهم الى الوطن الام ، نحب ان نعطي صورة سريعة عن الهجرة في الشعر العربي القديم .

الشاعر مرآة قومه .. تنعكس عليها حياتهم الخاصة والعامة ، وتعطي الاجيال القادمة صورة حية عنها ـ بكل ما فيها من مساوىء ومحاسن ، وامل ويأس ، واشراق وتجهم ، وانطلاق وجمود .

والهجرة في حياة العرب وتاريخهم شيء ضخم . وعامل اساسي من اقوى عوامل وجودهم وبقائهم، واكثرها اهتماما بالدراسة ، وامعانا بالبحث والتنقيب .

فالعربي الذي انطلق من صحرائه ، وانفلت من أسر رمالها الظامئة المجدبة ، وارتحل شرقا وغربا ، وعسكر هنا.. وأقام هناك.. وانتقل بين آسيا وافريقيا واوروبا، ومن ثم امريكا ، ينشر اخلاقه ، ويبشر بتعاليمه ، ويغمر الدنيا بفيض لا ينقطع من لألاء نفسه المتوثبة للحرية، وقلبه المتفتح للحياة .

هذا العربي .. الذي هجر أرضه الى ارض جديدة، لم يسل أرضه الاولى، ولم يجفها ، وانما ذهب ليضم اليها ارضا اخرى ، ويصلها بها .. ويشدها نحوها بسلاسل من لغته وتراثه ، ونفحات وجدانه وايمانه . واذا بالارض الجديدة جزء من الارض القديمة ، وشعوب غريبة وكثيرة، تتكلم لغته، وتدين بدينه ، وتؤمن برسالته ...

ذاك فتح لم يعرفه الفاتحون . ومجد وقف الناس عنده حيارى باهتين . البقعة العربية تتوسع وتمتد ... حتى تصل الخليج بالمحيط ، وتتخطاها بمدنيتها ـ يوم لا مدنية ـ الا عند العرب ، وبحضارتها ـ يوم كانت الحضارة كلمة جامدة .. لا معنى لها ، ولا مدلول .

يوم كانت اوروبة تعيش في ظلام دامس من التأخر والجهل، وتخضع لانظمة اجتماعية جائرة ، واقطاعية مستبدة طاغية !

يوم كان الجهل يعشش في قلوب الناس وعقولهم، وبتخذ من اذهانهم مطايا ، ومن السنتهم دعاة ومبشرين!

في تلك الغمرة الرهيبة من الجمود والتأخر والتخلف، كان العرب دعاة هدي وخير واصلاح .

ولولا هجرتهم من أرضهم ، الى بقاع الدنيا ، لما كانت تلك الفتوحات ـ التي كان رائدها المحبة ، والانسانية، والعقيدة الخيرة السمحة .

ونحن هنا في هذا المقال ، لسنا بمعرض التحدث عن الهجرة بصورة عامة ومسهبة ، ولا عن بحث جزئياتها وظروفها ، والمكاسب التي حققتها الامة العربية منها ... وانما نحن بمعرض البحث عن الهجرة في الشعر العربي، واثرها في حياة بعض الشعراء العرب . متوخين الايجاز ـ ما امكن ، ومتوخين اعطاء صورة عن حياة الشعراء الذين كان دأبهم التنقل من مكان الى مكان ، وهدفهم الهجرة من بلد الى بلد ، ومن اقليم الى اقليم ..

وربما كان الشعراء العرب اكثر شعراء العالم تنقلا وعدم استقرار . ويعود السبب في هذا الى الحياة القبلية التي كانوا يحيونها، والى المغريات الجمة التي كانت تدفعهم للتنقل من ارض الى ارض ، ومن بقعة الى اخرى.

ويستطيع القارىء ان يسميها « هجرة » ، أو أن يضفي عليها أي اسم أراد . وهي لا تخلو عن كونها تغيير مكان بمكان ، واستبدال قوم بقوم ، وبيئة ببيئة .

ولا نستطيع ان نقف الا عند عدد قليل ومحدود من الشعراء الذين هجروا موطنهم ، وهاجروا منه .. أو ارتحلوا الى أماكن اخرى .. ولعل « الشنفرى » اول شاعر تحدث عن «الهجرة» ودعا اليها :

أقيموا بني أمي صدور مطيتكم
فاني الى قوم سواكم لأميل
فقد حمّت الحاجات والليل مقمر
وشدت لطيأت مطايا وأرحل

وهو اول شاعر ، من القدامى، الذين وصلنا شعرهم، يعدد فوائد « الهجرة » ، ويذكر بواعثها ومسبباتها ، في شعر قوي متين :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى
وفيها لمن رام العلى متحول
لعمرك ما في الارض ضيق على امرىء
سعى راهبا او راغبا وهو يعقل
لأستف ترب الارض.. كي لا يرى له
علي من الطول امرؤ متطول

وارتحل « امرؤ القيس » الى بلاد الروم ، يستعدي مليكها على قتلة ابيه ـ وهو القائل :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك انما
نحاول ملكا.. او نموت فنعذرا

وكان « التكسب » في الشعر اكثر ما يصيب الشاعر في الجاهلية . ورواة التاريخ يتهمون « اعشى قيس » بأنه اول من استن فكرة « التكسب » ، وولج بابه ، واتخذه وسيلة للعيش . فكان ينتقل من مكان الى آخر للمدح وقبض الثمن ! وكان الناس يلقبونه بـ « صناجة العرب » ـ فكم رفع اسما وضيعا ، ووضع اسما رفيعا !

ومما يروى عنه انه كان في بلاط « كسرى » ، وقد بلغ به الارق مبلغه ، فراح يردد :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ؟
وما بي من حزن ، وما بي معشق

وصدف ان مر كسرى ، وسمع « الاعشى » ، فسأل عنه ، وعن الكلام الذي يردده . ولما ترجم له قال : « ان الذي يأرق من دون حزن أو عشق يكون لصا » .

ومن الشعراء الجاهليين الذين هاجروا الى خارج بلدهم، «النابغة الذبياني» الذي اتهم بحب « المتجردة » زوجة « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة ، فقد هاجر من العراق الى دمشق ، واستوطنها . وظل يستعطف

« النعمان » بقصائد بالغة جد الروعة . وهو صاحب البيت المشهور ـ يخاطب به « النعمان » ـ ويقال انه ابلغ ما قيل في الوصف :

وانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن الشعراء الذين هاجروا الى دمشق في عصر الجاهلية « حسان بن ثابت الانصاري » . وقد أدرك الاسلام وعاش حتى عهد معاوية . وله في وصف ملوك الغساسنة قصائد رائعة .

وفي العصور الاسلامية كثرت هجرة الشعراء العرب من بلد الى بلد . بعضها في سبيل العمل ، واكثرها في سبيل الكسب . ومن الصعب ذكر اسمائهم جميعا. لان ذلك يقتضينا ذكر اسماء اكثر الشعراء . ولكن لا بد من ان نقف عند بعضهم ـ ولو وقفة عابرة .

هاجر « الاخطل » الى دمشق من العراق . واقام في بلاط الخليفة ، وكان شاعر الامويين .

وارتحل « ابو تمام » مع والده الى مصر . وكان ما يزال فتيا . لكن أمله لم يتحقق بالاقامة في ارض الكنانة، فعاد الى سورية ، بعد ان عاتب أمير مصر لانه أبطأ باجازته:

الفطر والاضحى قد انسلخا ولي
أمل ببابك صائم لم يفطر
حول ولم ينتج نداك .. وانما
تترقب الحبلى لتسعة أشهر

وذهب « ابو تمام » الى ايران . ثم عاد الى العراق. واستقر في مدينة الموصل حيث عين مديرا لبريدها ، الى ان توفي فيها ـ وهو القائل :

بالشام أهلي. وبغداد الهوى. وانا
بالرقمتين ، وبالفسطاط اخواني
وما أظن النوى ترضى بما عصفت
حتى تشافهني أقصى خراسان

وهو القائل ايضا :

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة
الى الناس، ان ليست عليهم بسرمد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا
ألذ به ، الا بنوم مشرد

والشاعر الذي ضرب بسهم وافر في الهجرة والتنقل كان «ابا الطيب المتنبي » الذي ولد في « الكوفة » ، ووالده من اليمن . وظهرت عليه دلائل النجابة ، وسيماء الذكاء من صغره ، فحمله والده الى سورية حيث أدخله المكتب ليتعلم . ولم يلبث الوالد أن توفي وترك ابنه يتيما . ولما كبر شرع يتنقل بين القبائل العربية، ويتخذ منها اصدقاء. ولم لبث ان اتهم بادعاء « النبوة » ، فسجنه والي حمص. ولما اطلق سراحه ذهب الى اللاذقية ، ثم صعد الى حلب، حيث استقر في بلاط « سيف الدولة » مدة طويلة مدحه خلالها باروع الشعر العربي ، واخلده وأغناه ـ وغادر حلب بعد ذلك الى مصر مارا في جبال لبنان :

وجبال لبنان . وكيف بقطعها
وهو الشتاء ، وصيفهن شتاء
سد الثلوج بها علي مسالكي
فكأنها ببياضها سوداء

وعاد من مصر الى العراق . ثم سافر الى بلاد فارس . واغتيل وهو في طريق عودته الى دمشق بالقرب من مدينة الكوفة .

و « ابو نواس » من الشعراء البارزين الذين ارتحلوا الى مصر . وله في مدح اميرها « الخصيب » قصيدة تعتبر من رائع الشعر العربي . منها :

تقول التي من بيتها خف مركبي
عزيز علينا ان نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب
بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها ، واستعجلتها بوادر
جرت فجرى في جريهن عبير
دعيني اكثّر حاسديك برحلة
الى بلد فيها « الخصيب » أمير
اذا لم تزر أرض «الخصيب» ركابنا
فأي فتى بعد «الخصيب» نزور ؟
فتى تنبت الامال من غوث كفه
ويعلم أن الدائرات تدور

ويقول المؤرخون : حينما وصل ابو نواس الى قوله: «دعيني اكثّر حاسديك برحلة» فقال له الامير : « وسيكثر حاسدوها ان شاء الله » . وأمر له بالف دينار أنفقها الشاعر كلها قبل ان يعود الى بلده .

وارتحل « ابو العلاء المعري » الى بغداد ، وكان ينوي الاقامة فيها . وكانت في ذلك الحين ملتقى الشعراء والفقهاء والعلماء . ولكنه اضطر للعودة الى سورية بعد الحادث المؤلم الذي جرى له في مجلس «الشريف المرتضى» . وله في وداع بغداد ابيات رقيقة ـ يقول في مطلعها :

أودعكم يا اهل بغداد والحشى
على جمرات ما ينين من اللذع

ويربط بعض المؤرخين بين خروج « ابي العلاء » من بغداد وبين قوله :

ولم أعرض عن اللذات الا
لأن خيارها عني خنسنه

وقوله :

لو أنصف العيش لم تذمم صحابته
وما غدرنا ، ولكن عيشنا غدرا

* * *

وقد جرى ذكر « الهجرة » على السنة كثير من الشعراء . وما ابلغ هذه الصورة، يصور بها احدهم نفسه وهو « عمر بن ابي ربيعة » :

أخا سفر جواب ارض تقاذفت
به « فلوات » فهو أشعث أغبر

قيل : ان « هارون الرشيد » بعد ان عاد من احدى غزواته في بلاد الروم ـ وكان له غزوتان في السنة ، اسماهما : « الصائفة » و « الشاتية » ـ طلب من في بابه من الشعراء . فدخل « الاصمعي » . فاتخذ الخليفة متكأ له ، وقال : أنشدني ما عندك . فأنشده قول « عمر بن ابي ربيعة » :

رأت رجلا . أما اذا الشمس عارضت
فيضحي ، وأما بالعشي فيحضر
أخا سفر جواب ارض تقاذفت
به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله ...
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

فقال الرشيد : لكأني ذلك الرجل .

يقول « الطغرائي » في « لاميته » المشهـــورة باسم « لامية العجم » :

ان العلى حدثتني ، وهي صادقة
فيما تحـــدث أن العز في النقلِ
لو أن في شرف المأوى بلـوغ منى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وشجع « الامام الشافعي » على « الهجرة » ، ويحبب النزوح عن الاوطان :

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة فدع الاوطَان ، واغترب ِ
سافر تجد عوضا عمن تفارقـه
وانصَب فان لذيذ العيش في النصب
اني رأيت وقوف المـاء يفسـده
ان سال طاب، وان لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
لملها الناس من عُجم ومـن عرب
والتبر كالترب ملقـى في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الخشب
فان تغرَّب هـــذا عز مطلبه ..
وان تغرب ذاك عـز كـــالذهب

وقال ايضا :

اذا قيلَ في الاسفـار ذل ومحنة
وقطع الفيافي ، واقتحام الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته
بدار هوان بين واش وحـــاسد

وهو القائل :

أمطـري لؤلؤا جبـال سرنـديب
وفيضـي آبار تكـرور تبـــرا
همتي همة الملـــوك ، ونفسـي
نفس حر تـــرى المذلة كفـــرا
انا ان عشت لسـت أحـرم قوتا
واذا مـــت لست أحرم قبـرا

مثل هذا الاباء العربي ، يفيض به الشعـر العربي . وقل ان تقرأ لشاعر مجيد الا وتجد هذا الاباء ينبض في قصائده ، ويسيل على يراعته . يقول « جرير » :

واني لعفُّ الفقر مشترك الغنى
سريع اذا لم أرض داري انتقـاليا

ويقول « سلمة بن يزيد » ــ وهو يرثي اخاه :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
اذا هو ما استغنى ويبعده الفقر

ويقول « كلثوم بن عمرو » :

ان الكريم ليخفي عنـــك عسرته
حتى تراه غنيـــا ، وهو مجهود

ويقول « حاتم الطائي » :

فما زادنا بغيا على ذي قـــرابة
غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقـر

ويقول « ابو فراس الحمداني » :

اذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعا من خـلائقه الكبـر

ويقول « بدوي الجبل » :

وأحمل عن اخواني العسر جاهدا
ويبعدني عنهم اذا أيسروا اليسر
ونفسي لو أن الجمر مس اباءها
على بشرها الريان لاحترق الجمر

ونحب ان نختتم هذا الفصل بقصة الشاعر « علي بن زريق » الشاعر البغدادي الذي ارتحل الى المغرب يمتدح اميرها . واحب الامير أن يداعبه فقال له : « قد مدحنا بقصيدتك هذه ، وسمعناها من سواك قبل ان نسمعها منك » .

فأغتم الشاعر . وكان قد غادر بغداد ليظفر من امير المغرب بمهر خطيبته ، وكان آلها قد أبوا ان يبنوا له عليها الا بعد ان يقدم « المهر » الذي طلبوه ــ وكان مبلغا جسيما. وفي اليوم التالي بعد ان استنفدت النكتة غايتها، ارسـل الامير من يتفقد الشاعر ليجزيه ، فوجدوه ميتا وتحـت وسادته قصيدة من رائع الشعر العربي ــ ولعلها اروعـه وأبدعه واحلاه، وآنقه ديباجة ، وأجمله سياقه ، وأرقـه معنى . وهذه بعض ابياتها :

لا تعذليه . فان العذل يولعـه
قد قلت حقا ، ولكن ليس يسمعنه
جاوزت في لومـــه حدا أضر به
من حيث قدرت أن اللوم ينفعـه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا
من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالخطب يحمله
فضلّعت بخطوب البـين أضلعه
يكفيه من روعة التفنيد ان لـه
من النوى كل يـوم ما يـروعه
ما آب من سفر الا وأزعجـــه
عزم على سفـر بالرغم يزمعـه
تأبى المطالـــب الا ان تكلّفـــه
للرزق سعيا ولكن ليس يجمعـه
كأنما هو في حـــل ومرتحـل
موكـلٌ بفضـــاء الله يـذرعه
اذا الزمان أراه في الرحيل غنى
ولو الى السند أضحى وهو يقطعه

* * *

أستودع الله في بغداد لي قمرا
بالكرخ من فلك الازرار مطلعـه
ودعته ، وبـودي لـو يـودعني
صفو الحيـاة وأني لا أودعـــه
وكم تشفـع بي أن لا أفـارقه
وللضرورات حالٌ لا تشفعـــه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
وأدمعي مستهـــلات وأدمعـه
لا أكذب اللهَ ثوب العذرِ منخرق
عني بفرقتـــه لكـــن أرقعـه
اني أوسع عـذري في جنايتـه
بالبين عنه ، وقلبي لا يـوسعه
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته
وكل من لا يسوس الملك يخلعـه
ومن غدا لابسا ثوب النعيـم بلا
شكر عليه فعنه اللـه ينزعـــه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته
كأسا يجرع منـــه ما أجرَّعـه
كم قائل لي ذقت البين قلت له :
الذنب والله ذنبي لسـت أدفعه

عبد اللطيف اليونس